بالثّمار، حفروا حفرة عميقة أودعوا فيها الجوال القماشي. وقبل أن يهيلوا الترابَ على الحفرة، غمغم رياض حلبي بصلاة إسلاميّة، لأنّها كانت الصّلاة الوحيدة التي يعرفها. وحين عاد الرّجال إلى البلدة، رأوا أنَّ أحداً لم يأوِ إلى فراشه؛ كانت الأنوار تسطع في كلّ النوافذ، والنّاس تروح وتجيء في الطّرقات.

في تلك الأثناء، كانت المدرِّسة إينيس قد حكّت بالفرشاة جدرانَ الغرفة الخلفيّة وأثاثها؛ وأحرقت مرتبة السّرير وملاءاته، وجدّدت هواء المنزل، ثمَّ جلست في انتظار أصدقائها بعد أن أعدّت لهم عشاءً طيّباً وجرّة مليئةً بشراب الروم وعصير الأناناس. أكل الجميع الطعام وهم يتحدّثون حديثاً طليّاً عن آخر مصارعات الديكة، وهي مصارعة وحشيّة في رأي المدرِّسة وإن ادّعى الرّجال أنّها أقلّ وحشيّة من مصارعة الثيران التي فقد فيها مصارعٌ كولومبيٌّ كبدَه.

وكان رياض حلبي آخر من غادروا المنزل. وفي هذه الليلة، ولأوّل مرّة في حياته، شعر بالشيخوخة. وعند الباب، أمسكت المدرِّسةُ إينيس بيديه وتركتهما هنيهة بين يديها، قائلةً: شكراً أيّها العربي.

ـ لماذا جئتِ إليَّ أنا يا إينيس؟

ـ لأنَّك الشّخص الذي أكنُّ له أكثرَ الحبّ في هذه الدّنيا؛ ولأنّك كان يجب أن تكون أبَا ابني!

في اليوم التالي، عاد سكّان «أجواسانتا» إلى أعمالهم اليوميّة وقد أشاع فيهم التواطؤ الرّائعُ حماساً. فثمّة سرّ يحتفظ به جيرانٌ طيّبون في داخليّتهم، ويكتّونه في صدورهم بكلّ حماس ويتناقلونه أباً عن جد بوصفه أسطورةً من أساطير العدالة، إلى أن حرَّرتنا وفاةُ المدرِّسة إينيس، فاستطعتُ الآن أن أحكي هذه القصّة.

كـــاهـنـــة

فريد أبو سعدة

رتّبي مَوْتَنَا
لم يجئ حبنا بالخلاصِ
ولا الشعر همّ بنا

قالت الريحُ: إنّ المدينة مسكونةٌ بالشياطينِ
قلتُ: الثعابينُ من خلفنا
تترصّدنا من زجاجِ النوافذِ
تحت الوسائدِ
في الأعين الخائنه

قالت الريحُ: دعني لها
قلتُ: لا شيء يصلحُ ما أفسد البوحُ
في اللحظةِ الراهنه

رتّبي موتنا
لم يجئ صبرُنا بالخلاصِ
ولا الصمتُ همّ بنا

قالت الزلزلةْ:
كل شيءٍ أقوّضهُ فانتظرْ
سوف ألقي عليها الجبال الرواسي
أخضخضها بين كفيّ
حتى تقاسي
وأجعلها بكْ يا سيدي
تأتمرْ

قلتُ: لا يملك الحلمُ سيفاً يجيءُ
فهل يملك السيفُ أن يحلما
وهل يملك القلبُ أن يستمر
ولا يسأما؟

قلتُ: إني أجفُّ من القيظِ
وهي على الصدر قاعدة
كالحجرْ

رتّبي موتنا
لم يجئْ دمعنا بالخلاصِ
ولا الخوف همّ بنا
قالت النارُ: إن المدينة كاهنةٌ
تمتطي الناس بالسّحرِ
دعني لها
سوف أحرق عين المدينةِ
أغرزُ سيفاً من النارِ في قلبها
قلتُ: لا
ليس منجانا موتُ المدينةِ
أو مرتجانا
فهل يأخذ القلبُ سمتَ المعذِّبِ
أو تكتريه الرؤى اللاعنهْ؟

رتّبي موتنا

يصرخ الدمُ: دعني لها
قلتُ: لا
فالمدينة روحٌ
وليست سكنْ
المدينةُ تأخذ شكل الوطنْ
فاستبنْ
أيها الدم من سوف تقتلُ
مَنْ!

رتّبي موتنا
فلعل المدينة
إذ تتوضأ من دمنا
يبطل السحرُ
تهربُ منها الشياطينُ
تنسلّ منها الثعابينُ
والشعر يزهو بنا

القاهرة